النصْر

بَشَائِرُهُ وَحَقِيقَتُه

وَأَسبَابُه وَمَوَانِعُه

وَطَائِفَتُه

كتبه

علي بن سالم بن يعقوب باوزير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، كما يحبّ ربّنا ويرضى ، وكما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، حمدا يوافي نعمَه ويكافئُ مزيدَه ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، بلغ رسالة ربه، ونصح لأمته ، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، فصلوات ربي عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد :

أيها الإخوة الكرام : حديثي معكم في هذا اللقاء سيكون ـ بإذن الله تعالى ـ عن **(النّصر)** الذي يَنشده كل مسلم وكل مؤمن : عن مبشراته ، والوعد به ، وحقيقته أي مفهومه الصحيح ، وأسبابه ، وموانعه ، ومَن الموعودُ به ؟ .

كثير تحدثوا عن النصر لكن غلب على حديثهم الجانب العاطفي دون الشرعي ، وسيكون حديثنا منطلقا من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، من غير تعيين لزمان أو مكان أو فئة .

(**بشائر النصر**)

وقبل أن أدخل في صُلب الموضوع أحبّ أن أبشركم بأن المستقبل للإسلام ، وأن العاقبة لعباد الله المتقين ، وهذه سنَّة الله تعالى التي لن تتحول ولن تتبدل ، يقول الله تعالى مبشّرا عباده المؤمنين بالنصر والغلبة التمكين ، وإظهار وإعزاز هذا الدين : ﴿ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب . وبشر المؤمنين ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ ، وفي الآية الأخرى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبُور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أراد أن أراضي الكفار يفتحها المسلمون ، وهذا حكم من الله بإظهار الدين وإعزاز

المسلمين . اهـ ، فهذه سنة الله تعالى التي لن تتغير ، وكذلك النبي ﷺ يبشر أمته بذلك ، فقال ﷺ : (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو ذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل الله به الكفر) رواه أحمد وغيره [السلسلة الصحيحة]، وقال ﷺ : (تقاتلون اليهود فتسلطون عليهم ، حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر ، فيقول الحجر : يا عبد الله هذا يهودي ورائي فاقتله) متفق عليه .

ورواه مسلم بلفظ : (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر : يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود) ، ومن عجائب أقدار الله تعالى أن اليهود منذ زمن قديم إلى اليوم وهم يحرصون على زرع هذا النوع من الشجر بكثرة ، فهم يساقون إلى تحقيق سنة الله تعالى فيهم ، وقد ذكِر أن بعض المسلمين قال ليهودي : إن نبينا بشرنا بأننا نقاتلكم فنقتلكم ، فأجابه بقوله : لستم أنتم الذين تقتلوننا ! إذا كانت مساجدكم في صلاة الفجر كصلاة الجمعة ، فأنتم حينئذ الذين تقتلوننا ! ، وهذا يدل على أن اليهود يعلمون في قرارة أنفسهم أن العاقبة لعباد الله المؤمنين ، وأن المستقبل للإسلام وأهله ، لكن لما رأوا المسلمين في ضعف وذلة بسبب بعدهم عن دينهم ، وركونهم إلى الدنيا وشهواتها ، أيقنوا أن النصر لن يكون حليفهم .

(الوعد بالنصر)

أيها الإخوة الأفاضل : إن الله تعالى وعد عباده المؤمنين ـ ووعْدُه الحق ـ وعدهم في آيات كثيرة بالنصر والغلبة والتمكين ، منها : قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأغلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ .

وإذا نظرنا إلى واقع الأمة الإسلامية اليوم نجدها مستضعفة مستذلة من قبَل أعداء الإسلام ، فيرد ههنا سؤال وهو : هل يمكن أن يخلف الله وعده ؟ الجواب : قطعا لا ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ ، ويقول سبحانه : ﴿ فلا تحسبنَّ الله مُخلِف وعده رسله . إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ ، ويقول عز وجل : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسُّونهم بإذنه ﴾ ، ويقول جل ذكره : ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ ، ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ ، فلا يمكن أبدا أن يخلف الله وعده ، وعلى هذا فإما أن النصر قد تحقق لهذه الأمة لكن بوجه آخر ، وإما أن النصر لم يتحقق ؛ لأن الأمة لم تُحقق شرطه .

(حقيقة النصر)

ومن هنا نقول : إن النصر في الكتاب والسنة ورد على معنيين : الأول : نصر حجة وبيان ، والثاني : نصر سيف وسنان .

ومما يوضح ذلك أن الله تعالى وعد أنبياءه ورسله بالنصر والغلبة والتمكين ، كما تقدم في الآيات السابقة ، وإذا نظرنا إلى تاريخ الأنبياء والرسل نجد أن كثيرا منهم كانوا يُقتلون ، كما في قوله تعالى : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء . سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ ، وقوله : ﴿ قل فلِم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ ، وقوله : ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾ ، وليس القتل في الأنبياء فقط بل حتى الرسل ، كما قال تعالى لليهود الخوَنة : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ﴾ فقد كان من دأبهم وعادتهم قتل أنبياء الله ورسله ، قتلوا زكريا ويحيى وغيرهما .

فإن قيل : أليس هؤلاء الأنبياء والرسل منصورين ؟ الجواب : بلى ، إذا فلا يلزم من القتل الهزيمة والخذلان ؛ لأن النصر ورد على معنيين ، كما تقدم ، وانتصار هؤلاء كان بالحجة والبيان ، فقد جعل الله حجتهم قائمة على مخالفيهم ، فلما عجز أعداؤهم عن مقابلة الحجة بالحجة لجؤوا إلى سبيل القوة والعنف ، كما هو دأبهم في قولهم لرسلهم : ﴿ لنُخرِجَنَّكم مِنْ أرضِنَا أو لتعودُنَّ في ملَّتنا ﴾،

﴿ لنرجمنَّكم وليمسَّنَّكم منَّا عذاب أليم ﴾ ، وانتصار الداعية بعد وفاته قد يكون أبلغ من انتصاره في حياته ؛ لأن المقصود الأعظم هو انتصار الدعوة والمنهج ، أما ذات الشخص فإنَّه يقال له كما قيل لصاحب القرية : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ ، ومما يؤكد ذلك ما جاء في قصة الغلام مع الملك ، فإنه لما عجز الملك عن قتله ، قال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ! قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتي ، وضعْه في كبد القوس ، ثم قل : بسم الله ربِّ الغلام ، ثم ارم ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهما من كنانته ، ووضعه في كبد القوس ، ثم قال : بسم الله رب الغلام ، ورماه فوقع السهم في صدغه [وهو ما بين الأذن والعين] فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، فأتي الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس ! فأمر بالأخدود بأفواه السكك . رواه مسلم .

فانتصار الغلام بعد وفاته كان أبلغ منه في حياته . والنصر هنا بغلبة الحجة فقد آمن الناس بالله ، ولا يضره أن يقتل لأن مآله ـ بإذن الله ـ إلى جنات النعيم .

فنصر الحجة متحقق ولابد ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ ، أما نصر السيف فسنة الله تعالى أن يجعله مداولة ، تارة للرسل وأتباعهم من المؤمنين ، وتارة لأعدائهم من الكافرين ، ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان عن صفات النبي ﷺ كان مما سأله عنه : هل قاتلتموه ؟ قال : قلت : نعم، قَالَ : فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ ؟ قُلْتُ : الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ . فقال له هرقل: سألتك كيف كان قتالكم إياه فزعمت أن الحرب سجال ودول، فكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة . متفق عليه ، فاستدل هرقل بذلك على نبوته ﷺ ، والأمر كما قال تعالى : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ .

فلا نيأس من روح الله ، ولا نقنط من رحمة الله ، وإننا لنؤمل في الله القوي العزيز أن يجمع لنا نصر السيف والسنان مع نصر الحجة والبيان .

ولكن ليعلم أن الله تعالى جعل للنصر والتمكين شروطا وأسبابا .

(سنة الله الكونية والشرعية)

وقبل أن نشير إلى أهم هذه الأسباب ، وأبرز تلك الشروط نقول : إن الله تعالى له سنن شرعية ، كما أن له سننا كونية . وقد ربط سبحانه الأسباب بالمسبَّبات ، فمثلا : إذا أراد إنسان أن يشبع ؟ يأكل ، وإذا أراد أن يروى يشرب، وإذا أراد أن يدفأ يشعل نارا ، أو يلبس صوفا ونحو ذلك ، فلو أراد أن يشبع بدون أكل ، هل هذا يمكن ؟ مع أن الله على كل شيء قدير ، قادر على إبطال هذه السنن ، وهذه الأسباب ، كما قال سبحانه : ﴿ قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ ، وقال : ﴿ كلما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقا ﴾ ، ولكن الأصل هو الأخذ بالأسباب ، ولهذا لما وضعت مريم بعيسى عليه السلام ردها الله إلى الأصل ، فقيل لها : ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ﴾ وإلا فماذا يعمل هذا الهز أولا : من امرأة ، وثانيا : ضعيفة بوضعها ، وثالثا : تهز الجذع ، لا رأس النخلة ، ومعلوم الفرق بينهما ، ولكن المقصود الأخذ بالأسباب ، كما قال لموسى : (اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) ، (اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) .

والله تعالى قادر على الانتصار من الكفار بدون أسباب : بدون مؤمنين ولا قتال ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ ، ولكنه سبحانه جعل للنصر شرطا عاما فقال : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ ، وهذا التعبير عند علماء العربية يقال له : شرط وجزاء ، فالشرط هو : (تنصروا الله) ، والجزاء هو : (ينصرْكم) ، ومثل ذلك له مفهوم ، وهو: إن لا تنصُروه لا ينصركم ، وقريب منها قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ . وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ،

(أسباب النصر والتمكين)

سبقت الإشارة إلى السبب العام للنصر والتمكين ، ألا وهو أن ننصر الله تعالى ، وذلك بالاستقامة على دينه : قولا وعملا واعتقادا ، ومع ذلك فسنذكر جملة من الأسباب على وجه التفصيل مقرونة بأدلتها لأهميتها :

❁ أولا : الرجوع إلى الدين بمفهومه العام، والأخذ به في كل صغير وكبير، لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خُطوات الشَّيطان إنّه لكم عدوّ مبين ﴾ أي خذوا الإسلام من جميع نواحيه ، ولا تفرطوا في شيء منه ، وقول النبي ﷺ : (... سلَّط الله عليكم ذلاّ لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم) رواه أبو داود [صحيح أبي داود] ، خلافا لمن قسَّم الدِّين إلى قشور ولباب ، وجعل يستهين بما زعم أنه قشور ، فلا اللباب حققوا ، ولا القشور حفظوا ، وقد سمعت هذه الأيام عن بعض الجهلة من الناس ينتقد بعض الدعاة لما حثَّ الناس على صيام عاشوراء ، وبيَّن لهم فضله ، فقال هذا المخذول : وهل هذا وقت الحديث عن صيام عاشوراء وإخواننا يُقتَّلون بغزَّة ؟! . وكأنَّ صيامَ عاشوراء سبب في خذلانهم ، أو كأنَّ ترك صيامه مما يعين على نصرتهم، سبحان الله ! وما درى هذا المسكين أن مثل ذلك من أعظم أسباب إجابة الدعاء ، الذي هو أقوى سلاح المؤمن ، لاسيما في هذه الأزمنة العصيبة ، كما قال تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ... ﴾ ، وهذه الطائفة المتحمِّسة للدين على جهل ـ لا كثرَهم الله ـ لا هم نصروا فلسطين ، ولا هم استقاموا على أمر الدين ، وإنما هي كما قيل : (شِنشِنة أعرفها من أخزم) ، وفي المثل الآخر : (أسمع جعجعة ولا أرى طحنا) .

❁ ثانيا : الإيمان ؛ لقوله تعالى : ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ ، وقوله : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ، ولابد من تحقيقه على الوجه الشرعي ، فلابد في الإيمان من أمرين ، الأول : أن يكون على معتقد السلف الصالح ، وليس أيَّ إيمان ؛ لقوله تعالى : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ ، وقوله : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ﴾ أي أصحاب محمد ﷺ ﴿ قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء . ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ ، والثاني : أن يكون قويا ، لا ضعيفا هزيلا ، فإنه حينئذ لا يقوى على تحقيق وعد الله تعالى ، والإيمان القوي هو ما ذكر في جملة من الآيات ، كقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكِر اللهُ وَجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ، وقوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴾ .

وليعلم أن الإيمان على معتقد أهل السنة والجماعة هو قول باللسان ، وعمل بالجوارح ، واعتقاد بالقلب ، يزيد وينقص ، وهو شعب ودرجات بعضها فوق بعض ، ومما يدل على ذلك أن الله تعالى ينادي عباده فيصفهم بالإيمان ، ويطلب منهم الإيمان ، كما في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ أي اثبتوا على الإيمان واطلبوا منه عالي الدرجات ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمِنون بالله ورسوله ﴾ ، والآيات التي تدل على أن الإيمان يزيد كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا. فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا ﴾، وقوله: ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ﴾ ، وقوله : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ ، خلافا للإيمان عند الوعيدية الذين لا يرون زيادته ونقصانه ، فالخوارج تكفر أصحاب الكبائر ويخلدونهم في جهنم ، والمعتزلة يخلدونهم ويخرجونهم من الإيمان ، فيجعلونهم بمنزلة بين المنزلتين . وخلافا للإيمان عند المرجئة الذين يرون أن الإيمان مجرد التصديق ، أو قول اللسان ، وأنه لا تضر معصية مع الإيمان ، وأن إيمان أفسق الناس كإيمان أتقى الناس .

❁ ثالثا : إخلاص العبادة لله ؛ لقوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمكَنَنَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ ، والعبادة هي منتهى الذل والخضوع لله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه محبَّة ورجاءً وخوفاً ، ولا تكون العبادة صحيحة مقبولة إلا بشرطين : الأول : الإخلاص لله تعالى ، والثاني : المتابعة لرسول الله ﷺ ، فإذا فقد الشرط الأول كان العمل شركا مردودا على فاعله ، كما قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ ، وإذا فقد الشرط الثاني كان العمل بدعة مردودة على صاحبها أيضا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم .

❁ رابعا وخامسا وسادسا : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لقوله تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ . فجعل الله هذه الأمور من أسباب دوام التمكين وبقائه .

فإقامة الصلاة : تحصل بالمداومة عليها ، وأدائها في أوقاتها المحددة شرعا ، والمحافظة على شروطها وأركانها وواجباتها ، ويؤديها الرجال حيث ينادى بها في بيوت الله ﷻ ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له إلا من عذر) رواه ابن ماجه [صحيح ابن ماجه] ، ولابد من تعلم صفة الصلاة الشرعية كما وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه قال : (صلوا كما رأيتموني أصلي) متفق عليه ، وبعض الناس يظن أن مجرد حسن النية يكفي في صحة الصلاة ، وهو ظن خاطئ ، ومن أظهر الأدلة على ذلك : حديث المسيء في صلاته ، حيث أمره النبي ﷺ أن يعيد الصلاة ثلاث مرات ، وقال له : (ارجع صلّ فإنك لم تصلّ) ، مع أن قصده حسن ، ولكنه أخل بصلاته ، فلم يكن يطمئن فيها .

والزكاة : هي القدر الواجب إخراجه من أموال مخصوصة بشروط مخصوصة ، والأموال التي تجب فيها الزكاة : (النقدان) وهما الذهب والفضة والفلوس التي قامت مقامهما ، و(بهيمة الأنعام) ، وهي الإبل والبقر والغنم ، و(ما يخرج من الأرض من الزروع والثمار) كالبر والشعير ، والتمر والعنب ، و(عروض التجارة) وهي الأموال المعدة للكسب والربح بالبيع والشراء . وإيتاؤها يكون بإعطائها لمستحقيها ، وهم الأصناف الثمانية المذكورون في آية الصدقات .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : شعيرة عظيمة ، وهي كغيرها من العبادات يجب أن تكون على الوجه الشرعي ، خلافا لطريقة الخوارج والمعتزلة والشيعة من الرافضة وغيرهم ، يقول الله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ ، ويقول : ﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلا قَلِيلا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ لعن الذين كفروا من

بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾، وقال النبي ﷺ : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) رواه مسلم ، وقال : (إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه [صحيح أبي داود] ، وقال ﷺ : (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم) رواه الترمذي [حسن / صحيح الجامع] .

وهذه الشعيرة ماضية في حال السلم والحرب ، وفي حال الهزيمة والفشل كما في أحد وحنين ، وكذا في حال الغلبة والنصر كما في بدر ، فإن الله تعالى لا يترك التنبيه على الأخطاء التي يقع فيها المسلمون ، وما ينبغي أن يكونوا عليه، ففي بدر لما اختلفوا في شأن الغنائم وقسمتها أنزل الله تعالى قوله : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول . فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ ، وفي بدر أيضا نبههم إلى ما ينبغي فعله في شأن الأسرى فقال : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخِن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ ، ولما خرج رسول الله ﷺ إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها : ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم ، ويعكفون حولها ، قالوا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال النبي ﷺ: (سبحان الله [وفي رواية: الله أكبر] هذا كما قال قوم موسى : ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم [وفي رواية : سُنة سُنّة]) رواه الترمذي [صحيح الترمذي] ، فأين هذا من المنهج القائم على قاعدة : يعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه ؟ .

❁ سابعا وثامنا وتاسعا وعاشرا وحادي عشر : الثبات في أرض المعركة ، والإكثار من ذكر الله ، وطاعة الله ورسوله ، وعدمُ التنازع ، والصبرُ : لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ .

فالثبات يعني الصمود لقتال الكفار ، وعدم التولي والفرار ، فقد عدَّ النبيّ ﷺ التولي يوم الزحف من أكبر الكبائر ، ومصداق ذلك من كتاب الله تعالى قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولِّهم يومئذ دبره إلا متحرِّفا لقتال أو متحيِّزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ ، وهذا ما لم يزد العدو على الضعف ، فإن زاد جاز الانسحاب ؛ لقوله تعالى : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا . فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ﴾ الآية ، فأوجب الله أولا مصابرة الواحد لعشرة، ثم نسخه بمصابرة اثنين فقط ، فإن زادوا لم تجب مصابرتهم ، وجاز الانسحاب ، كما فعل خالد بن الوليد ﷺ في غزوة مؤتة .

والإكثار من ذكر الله تعالى عند ملاقاة العدو ، من التكبير والتهليل والتحميد والتسبيح ، والدعاء والتضرع والاستغاثة بالله جل وعلا ، لا من الشعارات الطائفية كالقوميّة والعربيّة ، والنعرات الجاهليّة .

وطاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ ، تكون بالقيام بالفرائض والواجبات ، واجتناب المعاصي والمحرمات .

والاعتصام بحبل الله جميعا ، وعدم التنازع والتفرق والاختلاف ؛ لأن ذلك من أعظم أسباب الهزيمة والفشل وإذهاب الريح وهي القوة ، ولم يذكر الله تعالى التفرق والتنازع والاختلاف في كتابه الكريم إلا في محل الذم والتنفير ، كما في قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ ، وقوله : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء . إنما أمرهم إلى الله ﴾ ، وقوله : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ ، وما أصاب المسلمين اليوم من الضعف والذلة والهوان ـ بعد بُعْدهم عن دينهم ـ إلا بسبب تفرقهم شيعا وأحزابا وانشغال بعضهم ببعض ، فحسبنا الله ونعم الوكيل .

والصبر ثلاثة أنواع : صبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، وصبر على أقدار الله المؤلمة، لاسيما ما يحصل في الجهاد: من القتل والجراح والأذى،

فإن عاقبة ذلك كله حميدة ، والصبر مع الثبات من أعظم مقومات النصر والغلبة والتمكين بإذن الله تعالى ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها النبيّ حرض المؤمنين على القتال . إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله . والله مع الصابرين ﴾ ، و﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قَالُوا أوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله ﴾، وقال تعالى: ﴿ وكأيِّن مِّن نبيٍّ قاتل معه ربِّيّون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ .

❁ ثاني عشر وثالث عشر : التقوى والتوكل على الله تعالى .

فالتقوى : هي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، والتوكل : هو صدق اعتماد القلب على الله جل وعلا في جلب المنافع ودفع المضار ، يقول الله تعالى : ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ﴾ ، ويقول : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ﴾ ، ويقول : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ أي كافيه ، كما قال : ﴿ يا أيها النبيُّ حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ ، أي كافيك وكافي من اتبعك ، وقال : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله . والله ذو فضل عظيم ﴾ .

❁ رابع عشر : إعداد العدة المناسبة للزمان والمكان ؛ لقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ وأعظمها قوَّة الرَّمي ، وفي وقتنا هذا الرمي بالصواريخ والقذائف والرصاص بالطائرات والمدافع والرشاشات ونحوها ، لحديث عن عقبة بن عامر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : ﴿ وأعدّوا له ما استطعتم من قوة ﴾ ألا إنّ القوة الرمي، ألا إنّ القوة الرمي، ألا إنّ القوة الرمي) رواه مسلم ، وقال ﷺ : (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والغنيمة) متفق عليه .

❁ خامس عشر : الجهاد في سبيل الله ، وهو ما كان لإعلاء كلمة الله تعالى ، وإظهار دينه ، لا رياء ولا حمية ولا شجاعة ، فلابد فيه من الإخلاص ؛ لحديث أبي موسى ﷺ قال : سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياءً ، أيّ ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) متفق عليه ، وقوله ﷺ : (إن أوَّل الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت ليقال : جريء ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار ...) الحديث رواه مسلم .

وقد وعد الله عباده المجاهدين في سبيله بالنصر ، كما في قوله تعالى : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ أي فرض عليكم جهاد الكفار ﴿ وهو كره ﴾ أي مكروه ﴿ لكم ﴾ لما فيه من المشقة بالقتل والجراح والأذى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ لما فيه من العزة والسيادة والنصر على الأعداء والفوز بالجنة ، فإنما هي إحدى الحسنيين إما الظفر والغنيمة ، وإما الشهادة والجنة ﴿ وعسى أن تحبوا شيئا ﴾ وهو ترك الجهاد والركون إلى الدنيا ﴿ وهو شر لكم ﴾ لما فيه من تسلط الكفار عليكم وإذلالكم ، وحرمانكم من عزة الدنيا ، وفوز الآخرة ﴿ والله يعلم ﴾ ما فيه خيركم وصلاحكم ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ذلك ، وقال تعالى في بيان مفاسد وأضرار ترك الجهاد : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل

على العالمين ﴾ أي لولا أن الله شرع جهاد الكفار وإلا لفسدت الأرض بغلبة الكفار عليها ، وإفسادهم فيها ، ويبين ذلك ما في الآية الأخرى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدِّمت صوامعُ وَبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾ أي لولا إظهاره وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم وعلى متعبداتهم فهدموها ولم يتركوا للنصارى بيَعاً ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود صلوات أي كنائس يصلون فيها ، ولا للمسلمين مساجد ، ولكن الله تعالى تفضل على الناس فشرع لهم الجهاد لقمع المفسدين .

وقد أخبرنا سبحانه بأن الكفار لن يرضوا عنا ولن يتركوا قتالنا حتى يردونا عن ديننا ، ونتبع ملتهم فقال : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولا يزالون يقاتلون حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ ، وهذا مما يوجب علينا الاستعداد لقتالهم لكف شرهم واعتدائهم على أقل الأحوال ، وإلا فنحن مطالبون بقتالهم ابتداءً ﴿ حتى لا تكون فتنة ﴾ أي شرك ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾ تعالى وحده ، وهو الإسلام الذي ارتضاه لعباده ، ولا يقبل دينا سواه ، أو ﴿ حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ .

واعلم أن الجهاد لا يكون شرعيا إلا إذا توفرت شروطه وانتفت موانعه ، وكان تحت ولاة الأمر من الأمراء والعلماء . وإلا لصارت الأمور فوضى ، وكان ضررها أكثر من نفعها . وقد بلغني عن بعض الخطباء المتحمسين للدين على جهل بأصوله وضوابطه ، أنه قال للناس في خطبة الجمعة ما معناه : لا يكفي مجرد الدعاء لإخواننا بغزة ، بل لابد من التمرد على الحكومات ، والخروج عليها ! وما درى هذا المسكين أنه بذلك يجعل بلده غزة أخرى ، فلا هو ربح نصر إخوانه هناك ، ولا هو حافظ على بلده التي هي رأس المال ، ولو كان صادقا في دعوته هذه لكان أول من يبدأ بالتمرد والخروج ، لينظر النتيجة الوهمية التي يزعمها ، ولكنه ينأى بنفسه ، ويريد أن يغرر بالعامة ؛ ليصطدموا بحكومتهم ، وتكون بلدهم فلسطينا أخرى ، فلا هو نصر تلك البلاد ، ولا هو أبقى على هذه ، وهذا غاية ما يتمناه الكفار ، ويؤمله أعداء المسلمين ، ولكن المتحمسين للدين على جهل لا يفقهون .

(موانع النصر ، أو أسباب الهزيمة والفشل)

مما سبق ذكره من أسباب الغلبة والنصر ، تتضح أسباب الهزيمة والفشل ، فإن الشيء يعرف بضده ، كما قال الشاعر : * وبضدها تتبين الأشياء * ، وقد جرت سنة الله تعالى أنه ما من مصيبة تنزل بالناس إلا وسببها من عند أنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ، وقال عقب ما حل بالصحابة من مصيبة في أحد : ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ ، وقال في بيان سنته الكونية ، وحُكْمه القدري : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾، وقد نبه الله تعالى عباده على بعض موانع النصر ، أو أسباب تخلفه، وكذا رسوله ﷺ ، ونحن نشير إلى بعضها ، سائلين الله تعالى أن يقينا شرها :

❁ أولا : السبب العام وهو عموم الذنوب والمعاصي ، فإن المتتبع لآيات القرآن الكريم ليجد أن هذا هو السبب في هلاك الأمم ، وخراب البلدان ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ فكُلا أَخَذنَا بِذنبِهِ ، فمِنهُمْ مَنْ أَرْسَلنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ، وَمِنهُمْ مَنْ أَخَذتهُ الصَّيْحَة ، وَمِنهُمْ مَنْ خَسَفنا بِهِ الأَرْضَ ، وَمِنْهُم مَّنْ أَغرَقنَا ، وَمَا كَانَ الله لِيَظلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفسَهُمْ يَظلِمُونَ ﴾ ، وعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة : ﴿ قلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (أَعُوذ بِوَجْهِكَ) . قَالَ : ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾، قَالَ : (أَعُوذ بِوَجْهِكَ) ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأسَ بَعْضٍ ﴾، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (هَذا أَهْوَنُ) أَوْ (هَذا أَيْسَرُ) رواه البخاري .

❁ ثانيا : معصية أمر القائد في المعركة ، كما حصل ذلك من بعض الصحابة ﷺ في غزوة أحد ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم . والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ ، ويقول سبحانه : ﴿ أولما أصابتكم مصيبة ﴾ أي في أحد بقتل سبعين من المسلمين ﴿ قد أصبتم مثليها ﴾ أي في بدر من قتل سبعين ، وأسر سبعين من المشركين ﴿ قلتُم أنَّى ﴾ أي من أين أصابنا ﴿ هذا ﴾ ونحن مسلمون ، وفينا رسول الله ﷺ ، وقد وعدنا الله بالنصر ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ أي مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الأمر

بترك المركز ، فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات والمطاوعة ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على النصر ومنعه ، وعلى أن يصيب بكم ، ويصيب منكم .

❁ ثالثا : الإعجاب بالنفس أو بالقوة أو بالكثرة ، كما حصل ذلك من بعض الصحابة ﷺ في غزوة حنين ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله . والله بما يعملون محيط . وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم . فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله . والله شديد العقاب ﴾ ، فالعُجْب ذنب عظيم ، حتى قال فيه النبي ﷺ : (لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه العُجْب) رواه البزار [صحيح الترغيب] .

❁ رابعا : نقض عهد الله وعهد رسوله ﷺ ، فعن ابن عمر ﷺ قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال : (يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن ...) فذكرها ، وذكر منها : (ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله ﷺ إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم ، فأخذوا بعض ما في أيديهم) رواه ابن ماجه [صحيح الترغيب] .

❁ خامسا : الظلم : يقول الله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ ، وباستقراء أحوال الأمم والبلدان نجد أن الظلم من أعظم أسباب سقوط الدول والبلدان ، ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية كلمة ماتعة ، استقاها من أيام الله ، واستقرأها من واقع التاريخ ، يقول رحمه الله : إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة . ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والإسلام . [مجموع الفتاوى : ١٤٦/٢٨] .

❁ سادسا : موالاة الكفار والمنافقين ، والركون إلى الظلمة من أهل البدع والضلال كالرافضة والقبوريَّة ونحوهم ، يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة ﴾

(البطانة) ومثلها (الوليجة) هو الذي يُعَرِّفه الرجلُ أسرارَه ثقة به ﴿ من دونكم ﴾ أي من غير المسلمين ﴿ لا يألونكم خبالا ﴾ أي لا يقصرون في إفسادكم ﴿ ودّوا ما عنتم ﴾ أي تمنوا إلحاق الضرر والمشقة بكم ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ فما استطاعوا إخفاءها ﴿ وما تخفي صدورهم أكبر ﴾ مما أظهروه لكم بأفواههم ﴿ قد بيَّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾، ويقول تعالى: ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سمَّاعون لهم ﴾.

❁ سابعا وثامنا وتاسعا : التعامل بالربا ، والإخلاد إلى الأرض ، وترك الجهاد ، يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض . أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة . فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا . والله على كل شيء قدير ﴾ ، ويقول النبي ﷺ: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد سلَّط الله عليكم ذلاّ لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم) رواه أبو داود [صحيح أبي داود] ، والعينة : هي نوع من أنواع الربا ، وهي أن يبيع سلعة بثمن مؤجل ، ثم يشتريها بأقل من ثمنها نقدا ، وقال النبي ﷺ : (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : (بل أنتم يومئذ كثير ، ولكن غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن)، قال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : (حب الدنيا ، وكراهية الموت) رواه أبو داود [صحيح الجامع] . وقال النبي ﷺ : (ما ترك قوم الجهاد إلا عمَّهم الله بالعذاب) قال العلامة الألباني رحمه الله عقب هذا الحديث : والحديث من أعلام نبوته ﷺ ، كما يشهد بذلك واقع المسلمين في كثير من البلاد ، وما حادثة مهاجمة اليهود للمسلمين ، وهم سجود صبح الجمعة من رمضان هذه السنة (١٤١٤هـ) في مسجد الخليل في فلسطين ببعيد . و صدق الله : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ . أسأل الله تعالى أن يلهم المسلمين الرجوع إلى فهم دينهم فهما صحيحا ، والعمل به ؛ ليعزهم وينصرهم على عدوهم . اهـ . [السلسلة الصحيحة ٢٦٦٣] .

ونؤكد هنا مرة أخرى أن الجهاد كغيره من العبادات ، لا يكون شرعيا إلا إذا توفرت شروطه ، وانتفت موانعه ، وكان تحت ولاة الأمر من الأمراء والعلماء ، وإلا لصارت الأمور فوضى ، وكان ضررها أكثر من نفعها ، ولا يخفى على مسلم أن الجهاد مر بمراحل ، فقد كان أول الأمر محرما ، ثم أذن بقتال من قاتل ، ثم أذن به مطلقا ، يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ ، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره : وإنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت الأليق به ؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا ، فلو أمرَ المسلمين ، وهم أقل من العشر بقتال الباقين لشَقَّ عليهم ؛ ولهذا لما بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ ، وكانوا نيّفا وثمانين ، قالوا : يا رسول الله ، ألا نميل على أهل الوادي ـ يعنون أهل مِنَى ـ ليالي مِنى فنقتلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : (إني لم أومر بهذا) . فلما بَغَى المشركون ، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم ، وهمّوا بقتله ، وشردوا أصحابه شَذَرَ مَذر ، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة ، وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة ـ ووافاهم رسولُ الله ﷺ ، واجتمعوا عليه ، وقاموا بنصره ، وصارت لهم دار إسلام ، ومَعْقلا يلجئون إليه ـ شرع الله جهاد الأعداء ، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك ، فقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقّ ﴾ اهـ ، [سورة الحج : ٣٩ ، ٤٠] ، وقال القاضي البيضاوي رحمه الله في تفسير قوله : ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ : بسبب أنهم ظلموا ، وهم أصحاب رسول الله ﷺ ، كان المشركون يؤذونهم ، وكانوا يأتونه من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه ، فيقول لهم : (اصبروا فإني لم أومر بالقتال) حتى هاجر فأنزلت . وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نُهِيَ عنه في نيّف وسبعين آية . اهـ [سورة الحج ٣٩] .

فإذا انتفت هذه الموانع وتوّفرت تلك الأسباب فسنة الله تعالى أنه لا يعطي النصر إلا بعد زيادة تمحيص وابتلاء ، كما قال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله . ألا إن نصر الله قريب ﴾ ، وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها . وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ ، وقال النبي ﷺ : (واعلم أن

النصر مع الصَّبر ، وأن الفرَج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا) رواه الخطيب [صحيح الجامع] ، وقال الشاعر :

اشتدي أزمة تنفرجي ❁❁❁ قدْ آذنَ ليلك بالبلج

(من هي الطائفة المنصورة ، وأين يكون أصلها)

قال ﷺ : (إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأرُزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأرُزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا) متفق عليه . و(يأرُز) بضم الراء ، وحُكِي فتحها ، بمعنى : ينضم ويجتمع .

وقال النبي ﷺ : (إذا فسد أهل الشام ؛ فلا خير فيكم ، لا تزال طائفة من أمتي منصورين ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى تقوم الساعة) رواه أحمد والترمذي [السلسلة الصحيحة] .

وقال ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين [وفي رواية : يقاتلون على الحق ظاهرين] ، [وفي رواية : قائمة بأمر الله] ، [وفي رواية : منصورين] لا يضرهم من خالفهم [وفي رواية : من خذلهم ولا من خالفهم] حتى يأتي أمر الله [وفي رواية : حتى تقوم الساعة]) رواه البخاري ومسلم وغيرهما بألفاظ متقاربة .

وهذا لا ينفي وجود بعضهم في بلاد أخرى أيضا ممن كان على منهجهم ، سائرا على طريقتهم ، قال الإمام البخاري رحمه الله في الطائفة المنصورة : هم أهل العلم ، وقال الإمام علي بن المديني رحمه الله : هم أصحاب الحديث . اهـ ، أي الذين يعتقدون معتقدهم ، وينهجون نهجهم .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لسلوك سبيلهم ، واقتفاء آثارهم ، ظاهرا وباطنا، قولا وعملا واعتقادا ، وأن يردنا وإخواننا المسلمين ردا جميلا إلى دينه القويم ، وأن يجمع كلمة المسلمين على الحق ، ويوحد صفوفهم ، ويثبت أقدامهم ، ويفرغ صبرا على قلوبهم ، وينصرهم على عدوه وعدوهم .

﴿ ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

﴿ ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ .

﴿ ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ .

وصلّ اللّهم وبارك على نبينا مُحمَّدٍ ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلّم تسليما كثيرا .

(**تمّت الرسالة**) (١)

(**والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصّالحات**)

(١) أصل هذه الرسالة مشاركة لي مع الشيخين الفاضلين: علي بن سالم بكيِّر وأحمد بن حسن المعلم ــ حفظهما الله تعالى ــ وذلك بالملتقى الدعوي للشباب، الذي أقيم بحضرموت ــ مدينة سيئون، بمناسبة حصار غزة ، ثم حررتها ونقحتها ؛ ليعم الانتفاع بها .